الشراكة الأورو متوسطية بين المركزية الثقافية الغربية واللاانسجام في الهواجس الأمنية

أ.د/ غربي محمـد- أ/ سفيان طبوش
جـامعة الشـلف

مـلخص:

تعتبر مشـكلة تحقيـق الأمـن في حوض المتوسـط وسـتظل أحـد أهـم التحـديات الـتي تواجــه بلــدان منطقــة المتوســط، وبخاصــة في ظــل إدراك تلــك البلــدان الفجــوة الجيوبوليتيكية بين شمال وجنوب المتوسط، الأمر الذي يدفع إلى إيلاء أهمية بالغة للبعد الأمني، حيث يمثل عالم السياسة بظواهره المتنوعة والمتعددة العالم الواقعي الذي نعيش فيه ونتعامل ونتفاعل مع حقائقه على نحو يومي ومستمر، خاصة في ظل عالم تسود فيه ثنائية الإقليمية/ العولمة، فأنتجت مفاهيم جديدة مثل الشراكة والتعاون لتحقيق الهيمنة والتبعية صيغت في مجموعة من النظريات منها نظرية المركز والأطراف التي ترى بوجود مركز تمثله المنظومة الرأسمالية العالمية وأطراف تتبع وتدور حول هذا المركز وأطروحة هنتغتون لصدام الحضارات التي تقوم على الآلية الثقافية، وانطلاقا من هذا يسعى شمال المتوسط إلى الهيمنة على جنوبه ما يقضي على فرص التعاون المتكافئ والهيمنة والسيطرة على الجنوب، فإعادة تركيب الوضع الجيواستراتيجي في المنطقة يجعلنا نتساءل أنه أليس من الخيال إعتبار المتوسط وكأنه منطقة متماثلة لها نفس المشاكل؟ وهل هناك مصالح مشتركة للمنطقة في ظل الطرح المركزي الأوروبي؟ وكيف نقيم المخاطر تقييما موضوعيا بعيدا عن المصالح والتهويل؟.

وللإجابة على الأسئلة يمكن تحليل الموضوع من خلال محورين أساسيين:

المحور الأول: اللاانسجام في الهواجس الأمنية في المتوسط: إلى أي مدى يتحقق صدام الحضارات

المحور الثاني: مركزية الثقافة الغربية: إثبات للأنا ونفي للآخر في منطقة المتوسط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Abstract:

Economic evolutions have produced new mechanisms for the strategic domination within the duality: regionalism / globalization , Non-military mechanisms that relied on traditional theories of control , which led to release new terms such as partnership and cooperation in order to achieve the dominance and dependence , these terms were shaped by a set of theories , for example: the theory of Center and periphery model, which states that there is a centre represented by the global capitalism , and periphery tracing the Center . and the theory of Hentengton which is based on the cultural mean , stating that The nord of the Mediterranean will dominate its south , which will destroy any chances of an equivalent cooperation and lead to the domination of the south, So the re-composition of the geopolitical situation makes us wonder: isn't an imagination to discuss the Mediterranean as an equivalent region dealing with the same problems? Is there any common interest for the whole region within the European vision ? how can we evaluate risks objectively without interests or Amplification ? To answer these questions , the subject can be discussed through two mane axes: First axe: the non harmony of security concerns: to what extent this might realise the clash of civilizations? Second axe: western cultural centralism: the substantiation of the ego and the elimination of the other.

مقـدمة:

إن التطورات الاقتصادية أفرزت آليات جديدة للسيطرة الاستراتيجية في ظل ثنائية الإقليمية/ العولمة غير الآليات العسكرية التي إعتمدت عليها النظريات التقليدية للسيطرة، فأنتجت مفاهيم جديدة مثل الشراكة والتعاون لتحقيق الهيمنة والتبعية صيغت في مجموعة من النظريات منها نظرية المركز والأطراف التي ترى بوجود مركز تمثله المنظومة الرأسمالية العالمية وأطراف تتبع وتدور حول هذا المركز ونظرية هنتغتون لصدام الحضارات التي تقوم على الآلية الثقافية، وانطلاقا من هذا يسعى شمال المتوسط إلى الهيمنة على جنوبه ما يقضي على فرص التعاون المتكافئ والهيمنة والسيطرة على الجنوب، فإعادة تركيب الوضع الجيواستراتيجي في المنطقة يجعلنا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نتساءل أنه أليس من الخيال التكلم عن المتوسط وكأنه منطقة متماثلة لها نفس المشاكل؟ وهل هناك مصالح مشتركة لكل المنطقة في ظل الطرح المركزي الأوروبي؟ وكيف نقيم المخاطر تقييما موضوعيا بعيدا عن المصالح والتهويل؟.

المحور الأول: اللاانسجام في الهواجس الأمنية في المتوسط: إلى أي مدى يتحقق صدام الحضارات

إن توظيف نظرية توينبي التحدي والاستجابة والتي تؤكد أن المدنيات التي تواجه تحديات وأخطار تزدهر وتنمو والعكس صحيح، ونظرية الكتلة المزدوجة لكايتي التي ترى أن الامكانية الأضمن والوحيدة في الغالب التي تملكها كتلة للحفاظ على نفسها وتماسكها إنما يكمن في وجود كتلة ثانية ترتبط بها سواء تواجهتا أو تبادلتا التهديد جديا في اللعبة[1]، وفي ظل هذا السجال الفكري أدركت الادارة الأمريكية أنها بحاجة إلى عدو جديد ما أعطى لأطروحة صدام الحضارات صدى قوي، حيث فتحت سجلات استراتيجية وسياسية وثقافية، وأثارت ردودا بين التأييد والرفض والتحفظ جعلت من العالم العربي الاسلامي مصدرا للإرهاب، حيث ينطلق هنتغتون من أن الحضارات سوف تضطلع في المستقبل القريب بدور مؤثر وفعال في خريطة السياسة الدولية، والمجتمع الدولي يتجه إلى التهيكل على أساس "الحضارات" التي تجمع بين دول متعددة، ما يجعل منطقة المتوسط حسب أطروحة هنتغتون تنقسم إلى شمال يمثل الحضارة الغربية وجنوب يمثل الحضارة الاسلامية، وأن الصراع الثقافي بينهما هو الذي يحكم السياسة الدولية ويشكل المصدر الرئيس للنزاعات والحروب والانقسامات، والحضارات باعتبارها أرقى تعبير عن الهوية وموازين القوى تطرح العامل الثقافي كمبدأ محرك للجيوسياسة، والتضامن يكون بين البلدان المنتمية إلى الحضارة نفسها ما يسميه هنتغتون " تعبئة الحضارات" فينتج عن ذلك سياسة الكيل بمكيالين والانحياز ليس إرادي فتتجه دول شمال المتوسط إلى تعبئة حضارتها التي تشكل القوة المركزية لتحركها اتجاه دول جنوب المتوسط، فتبرز عوامل الانقسام الحضاري فاعلا أساسيا في تحديد طبيعة العلاقة بين الضفتين فتتحدد النزاعات القادمة في منطقة المتوسط باعتبار أن الاختلافات الحضارية حقيقية وأساسية تشكل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قاعدة للإختلاف في الرؤية، فمثلا شمال المتوسط وفي ظل الحملة الدولية على الارهاب أصبح يروج في الاعلام على أن الارهاب مصدره الإسلام، فأصبح ينظر لكل مسلم على أنه إرهابي ومن هذا المنظور يعتبر جنوب المتوسط هو مصدر الإرهاب، إلا أنه من منظور جنوب المتوسط فالإرهاب مصدره التطرف والتوظيف السياسي في بعض الحالات ولا علاقة له بالدين الاسلامي فيحدث الاختلاف في الرؤية وعلى أساسه يتحدد النزاع في ظل كثافة التفاعلات التي تعزز الوعي بالحضارة من خلال معرفة الأنا بالآخر فيتعزز الإختلاف في ظل تراجع دور الدولة كمصدر للهوية، وبفعل التحديث الاقتصادي وفشل سياسات التنمية في جنوب المتوسط دخلت هذه الدول في اضطرابات واللااستقرار مما فتح الطريق أمام الدين فظهرت الحركات الإسلامية في جنوب المتوسط كبديل على الأنظمة المنهارة، وتصاعد إنتشار الدين الاسلامي في شمال المتوسط حيث ساهم في الاضطراب داخل الدول الغربية أين دعم سياسة الكيل بمكيالين ضد المسلمين وإعتبارهم مصدر الإرهاب (حادثة شارلي ايبدو...)، إن الصدام الحضاري في منطقة المتوسط سيكون في شكله الحاد نتيجة للحيوية الديمغرافية في الجنوب مقابل التراجع الديمغرافي للغرب في ظل الهجرة الشرعية أو غير الشرعية مع عدم قدرة الغرب على إدماج هؤلاء المهاجرين الذين يشكلون مجتمع داخل مجتمع وفي ظل تنامي اليمين المتطرف وإرادته السياسية في توظيف هذه الاختلافات باعتبار أن المسلمين في شمال المتوسط هم غالبا المتورطون في أعمال العنف؛ حيث نبه هنتغتون إلى تمحور التوترات بشكل متزايد حول الصراعات بين التيارات المدافعة عن الخصوصية الثقافية والقيم المحلية.

إن عولمة العنف الذي ينتج عنه العنف المضاد بإشعار المسلمين بأنهم مستهدفين عن طريق الحملة التي يشنها الغرب واعتبار كل "مسلم إرهابي" في ظل صدام الحضارات أو صراع الأديان أو صراع بين الخير والشر(محور الخير والشر) أو صراع بين الغرب والآخر أو صراع الثقافات كلها تعبيرات أنتجت تهدد دعم العلاقة بين شمال المتوسط وجنوبه؛ وهذا ما يؤكده جون كريستوف روفان حيث يرى وأنه من أجل تجنب القلق الناتج عن انهيار الاتحاد السوفياتي فإن الجنوب قد منح له دور البرابرة الجدد في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مواجهة الشمال المفترض أنه موحد إمبراطوري يمتلك القيم العالمية للحضارة الليبرالية الديمقراطية[2] ، فالخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل وهذا ما يمكن أن نلحظه مع حرب الخليج الثانية، الحرب على ليبيا بالإضافة إلى نشاط الجماعات الارهابية في منطقة جنوب المتوسط ودعمها.

إن هنتغتون يريد أن ينتهي عالمنا إلى حالة صراع وتدبير مشكلة بين الغرب واللاغرب أو بالأحرى بين المسلمين والمسيحيين، وفي هذا السياق هناك إهتمام واضح بالرغبة في فتح معركة مع الإسلام، وتعتبر منطقة المتوسط المرشحة لاحتضان هذه المعركة وذلك للعديد من العوامل أهمها القرب الجغرافي والتفاعل بين منطقة شمال وجنوب المتوسط والتزايد السكاني الذي يخيف الغرب من تقلص إشعاعه الحضاري ما يعجل في انهياره؛ وقد أشار برودال إلى مصطلح الحضارة كخط موجه يسمح بفهم الواقع المتوسطي وحتى الدولي، فهو يرى أن في المتوسط توجد ثلاثة مجموعات ثقافية حضارية تتدافع فيما بينها عبر التاريخ متجاوزة حدود الدول وهي الغرب، الاسلام، والعالم اليوناني، حيث تشكل دائما أعداء متكاملين حسبه[3]؛ فالعديد من الجهات الأوروبية تنبه إلى خطورة إهتزاز منظومة القيم الأوروبية من جراء ما سمي بالتطرف والإرهاب القادم بعباءة الإسلام من خلال تدفقات الهجرة، إنهم يؤمنون بدين مغاير للمسيحية وبالتالي فإنهم يمثلون خطرا دينيا وثقافيا يتطلب التوجس منه، وعدم إمكانية المسلم إندماجه أوروبيا وهو مصدر للعنف والتطرف فكرا وعقيدة وسلوكا؛ فأصبح الخطاب السياسي الأوروبي يقصي التعددية الفكرية والثقافية والدينية التي تقتضيها تواجد مهاجرين مختلفين ثقافيا وعقائديا وعرقيا وطائفيا، وعمدت الأحزاب الأوروبية إلى المزايدة على موضوع الهجرة كقضية إنتخابية وسياسية.

لقد ترعرعت ظاهرة العداء للأجانب لعدة أسباب منها[4]:

- التوظيف السياسي لهذا المشكل من طرف بعض الأحزاب السياسية وتحويل قضية الهجرة إلى قضية إنتخابية.
- الأحكام المسبقة من دول الاستقبال حول المهاجرين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– فقدان الثقة بنظرية " التعددية الثقافية" والدعوة العامة والعلانية إلى ضرورة صهر المهاجرين والجاليات الأجنبية في هوية البلد المضيف.

إن الهدف الرئيس لهنتغتون هو كيف يضمن الغرب هيمنته في مجال أصبح فيه مهددا بحضارات منافسة ترفض القيم الغربية؛ حيث أن المسلم حسب محمد أركون شخص مرفوض ومرمي في دائرة عقائده الغريبة ودينه الخاص وجهاده المقدس وقمعه للمرأة وجهله لحقوق الانسان والديمقراطية[5]، ويرى الجابري أنه يتم تصوير الإسلام على أنه الخطر الأخضر الذي حل محل الخطر الأحمر، والأصولية الإسلامية حركة ثورية عدائية مثل البلشفية والنازية، إن نفي الآخر وتنصيبه عدوا يصبح ضرورة ليتعرف الغرب على نفسه[6]، فمنطقة جنوب المتوسط تعتبر مصدر تهديد سواء على التركيب السكاني لأوروبا من خلال الهجرة أو الإرهاب أو قطع الإمداد بالبترول، فهل يمكن تشكيل رؤية على التفاهم والتعاون والشراكة بين شمال وجنوب المتوسط في ظل عالم يتطلع إلى الحضارة وعالم يحتكر الحضارة لنفسه، وعالم لا يملك قدرات التكافؤ وعالم لا يرضى لنفسه في أن يتكافأ مع من هو أقل منه، وعالم يبحث عن الاستقلال والاكتفاء الذاتي وعالم يتعامل بمنطق السيطرة والتبعية، كل هذا من شأنه أن يدعم مركزية الغرب ويزيد في الفجوة بين شمال وجنوب المتوسط ويقضي على الثقة بين المنطقتين فتزيد احتمالات الصدام بدل التعاون والشراكة.

ترتبط الجيوسياسة والأمن إرتباطا وثيقا بل إن الأمن في الواقع مسألة جغرافية، إذ لا يبدو منطقيا مفهوم الأمن بالخصوص في صوره الحربية والنزاعية دون الجغرافية، حيث تحدد الجغرافيا نوعية التهديدات الصلبة الموجودة، فعندما يتعلق الأمر بالبحر فإن أغلب التهديدات تكون ذات طابع بحري، فهي إما موارد عسكرية توظف في تهديد الطرف الآخر وهذا لا يعتبر تهديد بالنسبة لدول شمال المتوسط، أما التهديدات التي تواجه الاتحاد الأوروبي في منظوره هي جيوثقافية، أي جغرافيا ترتبط فيها حضارتان مختلفتان كل منها تنظر للأخرى بالشك والريبة فيتعلق غالبا التهديد في الجنوب على أن الشمال يسعى للسيطرة عليه وغزوه ثقافيا وإستغلاله إقتصاديا، أما الشمال فيعيب على الجنوب تدينه ويرى أنه سبب ظهور الأصولية والإرهاب والهجرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وغيرها من التهديدات التي تواجه شمال المتوسط من جنوبه؛ حيث تريد أروبا أن يقترب منها العالم العربي من خلال القيم الإنسانية الكونية، لكنها تريد أن تبقى مسافة ملائمة بينها وبينه حفاظا على هويتها، فهي تعيب عليه تدينه لكنها تنظر إليه بمنظار ديني[7].

فالتماثل الذهني للجيوأمن في منطقة المتوسط يعتبر الهواجس الأمنية غير منسجمة فيها، فمثلا عندما يستخدم مصطلح التهديد الإرهابي في المؤسسات الأوروبية فغالبا ينصرف الذهن إلى مناطق بعينها كالشرق الأوسط ومنطقة الساحل، وعندما يتم تباحث قضية الهجرة فغالبا ينصرف الذهن إلى تدفق المهاجرين عبر البحر الأبيض المتوسط، تفسر هذه الانعكاسات الذهنية الجغرافية لتوزيع الأخطار والتهديدات ما يظهر تناقض مضامين هذه السياسات حيث تسعى دول الاتحاد الأوروبي لإقامة شراكة مع دول جنوب المتوسط التي تعتبرها تهديد في نفس الوقت، لذلك يمكن إعادة مناقشة السياسة الأوروبية للجوار ومسار برشلونة خاصة فكرة كل شيء سوى المؤسسات.

إن الضغوط الجيوثقافية في المتوسط تحتاج إلى نمذجة المنطقة التي تتقاطع فيها تناقضات ثقافية حقيقية متخذة شكل حدود صلبة تماثلت مع الذهنيات وأصبح المس بها مسا بالحدود الجيواستراتيجية وبالمقدسات، حيث يجب أن يستند الحوار الأورو متوسطي إلى عقلنة العلاقات وإخضاعها للتفاعل الثقافي والحضاري والتبادل الفكري والعلمي والحرية الدينية[8].

يقع على منطقة المتوسط ثلاثة أنماط النبذ ذات الأثر البالغ على تفسير الهوية الأمنية وهي:

- عناصر النبذ الجيوثقافية: ويشمل ذلك سلوك الأفراد والدول والجماعات، والصورة التي كونها كل طرف على الآخر وهي عرقية دينية غالبا[9].
- عناصر النبذ الجيو استراتيجية: أثرت ثلاثة عناصر استراتيجية في المتوسط بينها المؤسسة العسكرية والتسلح والعقائد العسكرية وتحديد العدو على الخريطة[10].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– عناصر النبذ التحتية: الرأي العام واللوبيات والمهاجرون، ويبقى الإنسداد في أشكال التواصل واقعا تغلب عليه ردود الأفعال إزاء الرسومات الكاريكاتيرية المسيئة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام[11].

المحور الثاني: مركزية الثقافة الغربية: إثبات للأنا ونفي للآخر في منطقة المتوسط

يرى الغرب بأن العالم سيكون منقسم بين الأمم التي تجاوزت التاريخ والتي ما زالت متصارعة مع التاريخ، فشمال المتوسط حسب أطروحة فوكوياما "نهاية التاريخ والرجل الأخير" يتفاعل على أساس اقتصادي، أما جنوب المتوسط فيعرف صراعات دينية وقومية وإيديولوجية والعلاقة بينهما ستتحدد من خلال التهديدات والهجرة والبترول لذلك لجأت دول الشمال لإحداث مفاهيم جديدة للتكيف مع التحولات ومواجهة التهديدات، فالشراكة في إطار مسار برشلونة ومن وجهة نظر سمير أمين للمفهوم فيقول: "وإذا نظرنا إلى المقترحات الأوروبية المسماة بالشراكة الأورو ـ متوسطية وإلى جانبها الاقتصادي، حيث تزعم المؤسسات الأوروبية من خلاله "صنع قرار جديد"، أو اقتراح "التنمية المشتركة" وتتكلم عن "تنمية تضامنية" وعن "الشراكة" عوضا عن مصطلح "المساعدة الذي أصبح باليا لوجدنا عند الفحص والتحليل أن الأمر مختلف في واقعه"[12].

يقول ليدل هارت " لقد أثبتت الحرب العالمية الأولى صحة درس قديم وهو أن هدف الحرب الحقيقي هو روح قادة الأعداء لا أجساد جنودهم، والنصر يتحقق تحت تأثير الضغط المعنوي"[13]، ويتبدى التضليل السيكولوجي من شمال المتوسط لجنوب المتوسط بواسطة "فن قيادة النفوس" فالنفس بصورة جوهرية وأساسية سلبية لا تقاوم إنها بكليتها تستسلم لما تتلقاه من الخارج[14]، فالعقل الانساني يتعرض للتضليل لعدم قدرته على الاستيعاب والمعرفة أو عدم تمكنه من الإدراك والإحاطة بالقضايا التي تهدد منطقة المتوسط وفهمها بالمنهجية كالتحليل والتعليل والتركيب والاستقراء والربط السببي؛ فيقوم الحائز على السلطة (شمال المتوسط) بالتأثير على سلوك جنوب المتوسط بدون أن يوضح السلوك الذي يرغب منهم أن يؤدوه[15]، والسياسة تتأسس مفاهيمها على الواقعية والتجريبية وعلى الحياة السياسية والممارسات والتنظير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السياسي، والتجربة التاريخية تبين أن شمال المتوسط دائما كان يسعى إلى السيطرة على جنوب المتوسط سواء بطريقة مباشرة عن طريق الاستعمار أو استخدام مصطلحات ومفاهيم مستجدة مثل الشراكة، التعاون...الخ، فالخطاب السياسي هو خطاب متبادل التأثيرات والمفاعيل التي تتوقف على النوايا غالبا وليس المكتوب النصي أو اللفظ، فينتهج الشمال سياسة تجميع المصالح والاتحاد فيما بينه، وسياسة تفكيك المصالح وخلق الصراعات بين دول جنوب المتوسط.

ومن هنا ندرك أن هناك إشكالا حاصلا حول المفهوم نفسه، ومنه وجوب التساؤل أو إعادة النظر في العديد من المصطلحات الاقتصادية التي يتم تسويقها لنا في قالب جديد أو حلة جديدة ومغرية؛ فلقد لخص الباحث الفرنسي جان روبير هنري العلاقة اللامتكافئة بين الضفتين بقوله: " يفرض الاتحاد الأوروبي على دول الجوار قيما مشتركة وقيودا، لكن يمنح لهم القليل من الحقوق، نطلب منهم أن يكونوا مثلنا، معنا لكن ليس عندنا، فلنتشابه دون أن نجتمع"[16].

فأوروبا تتعامل مع دول جنوب المتوسط كأطراف تابعة وليس فاعلة في المركب الأمني الإقليمي، والنظرة الدنيوية لأوروبا إلى جنوب المتوسط والتعامل معه على أساس أنه امتداد جغرافي لأوروبا وبهوية متوسطية وليست عربية وإسلامية يثبت مدى مركزية الثقافة الغربية بإثباتها لوجودها مع نفيها للآخر في جنوب المتوسط.

فالإطار الذي تحركت فيه هذه الشراكة يطلق عليه "اتفاقيات التبادل الحر" هذه التسمية "الجديدة-القديمة"، لم تعد تعني شيئا في عصر عولمة مستوياته الاقتصادية والتجارية متشابكة ومتعددة بالضرورة[17].

إن الاستراتيجية الأوروبية في التعامل مع المنطقة الأورو متوسطية تنطلق من معطيين أساسيين الأول يتناول توسيع نفوذ أوروبا الإقتصادي والسياسي بما يسمح لها بتعزيز قدراتها التنافسية مع بقية التكتلات الإقليمية أما المعطى الثاني فهو داخلي يتعلق بوضع حد لمعدلات الهجرة المغاربية الصاعدة لأوروبا والتي سببت للمجتمعات الأوروبية قلقا متزايدا، دون الرغبة الحقيقية في ايجاد منطقة استقرار، خاصة عدم رغبتها حشر نفسها في القضية الفلسطينية؛ فالمشروع سيطر عليه أبعاد سياسية خدمت إسرائيل وتم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

استبعاد ليبيا بحجة الإرهاب الدولي، وإقحام الأردن لتوقيعها معاهدة سلام مع إسرائيل، بالإضافة إلى أن أروبا ترفض إزالة الحواجز أمام إنتقال التكنولوجيا وهذا يتنافى ومبدأ تكافئ الفرص وتعاون وشراكة على أساس المصالح والمنافع المشتركة[18].

فالشراكة تعتبر مشاغلة سياسية تضليلية لضرب تشكل التركيز في استخدام الطاقات والإمكانيات والقدرات، والتركيز يؤدي إلى الفعالية التي تحقق النجاح، فالمشاغلة السياسية لجنوب المتوسط تهدف إلى تدمير هذه القوة وشل إمكانياتها ومفاعيلها بآليات وطرق متعددة تتمحور حاليا في الشراكة الأورو متوسطية، فهي تؤدي إلى ضرب الخصم من الداخل بأقل تكلفة وجهد وبأقل خسائر ممكنة وبأكثر عائد دون التدخل المباشر، وفي هذا السياق يقول سن تزو " إن الفن الأعلى للحرب يهدف إلى إخضاع العدو دون محاربته"[19]، وهذا من خلال اتباع استراتيجية المشاغلة التفريقية ليبقى مسيطرا فيلجأ إلى تقسيمها وتفكيكها إلى عناصر متناقضة وإلى إثارة الصراعات فيما بينها وإلهائها ومشاغلتها بخلافات[20]، وهذا ما يمكن أن نلحظه من خلال العلاقات الجزائرية المغربية وتنافسهما والصراع بينهما مع دعم من الاتحاد الأروبي كل مرة لدولة، بالإضافة إلى استخدام المفاوضات الثنائية وتقديم التنازلات للقدرة على السيطرة على المنطقة وكذلك جعل ليبيا دولة منبوذة إقليميا بعدم ضمها لمشروع الشراكة الأورو متوسطية رغم أنها دولة متوسطية، إن سياسة المفاوضات الثنائية التي يستخدمها الاتحاد الأوروبي مع جنوب المتوسط في ظل الشراكة الأورو متوسطية يهدف من ورائها إلى خلق الصراعات وشرذمة جنوب المتوسط وتفتيه وشغلهم بأنفسهم لتدمير طاقاتهم وإمكانياتهم وتسهيل السيطرة عليهم.

أما "علي الكنز" فيرى أنه "تكثر التعبيرات من قبيل (الشراكة، والتنمية المشتركة، والتنمية المتساندة، والمستدامة، والتبادل الحر، والانفتاح الاقتصادي، والوضع في المستوى، والتحرير (أي إلغاء التقنين)، في الاقتصاد السياسي الأورو - متوسطي الجديد لتغطية سياسة اقتصادية ذات أهداف أكثر خفاء"[21]، فالرؤية الأروبية تركزت على خطاب مزدوج فمن جهة تقدم بدائل لحوار بناء يأخذ كل أبعاد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشـراكة الحقيقيـة، ومـن جهـة أخـرى نجـد أن الممارسـة الواقعيـة تعكـس توجهـا مغايرا[22].

على الـرغم مـن أن ظـاهرة الاعتمـاد المتبـادل الـتي فرضـت نفسـها في منطقـة المتوسـط تقتضـي حتميـة التفاعـل الايجـابي بـين الشـمال والجنـوب بحكـم حاجـة كـل طـرف للآخـر، إلا أن الأنـا الغربـي(شمـال المتوسـط) لا زال يمـارس ايديولوجيـة إقصـائية إيـزاء الجنـوب إزدادت حـدتها عقـب هجمـات سـبتمبر[23]، توجهـت القـوى الأوروبيـة إلى تغييـب الطـرف العربـي الجمـاعي عـن ممارسـة أي دور إقليمـي فعـال فانحصـر الـدور العربـي في المتلقي[24]، رغم أنه يعتبر مناطق عازلة كما سماها كريستوف روفان بالليمس وهي أحزمة أمنية دفاعية حيث أن الليمس المتوسطي هو أكثر حدة الذي يفصل بين إفريقيا وأوروبا التي يجب أن تعامل معاملة تمييزية والهدف هو ضمان الأمن والاستقرار والرخاء في مواجهة الآخر، أما العوالم البعيدة يجب تركها تواجه مصيرها ما يسميه روفان "بدبلوماسية الحوامة" كلما حدثت أزمة يجلي الغرب رعاياه ويمنح الرأي العام فرجة على المجـازر[25]، فـالغرب مـا فتـئ ينصـح رعايـاه بعـدم التنقـل إلى منـاطق الجنـوب المضطربة، على غرار ما فعلته فرنسا عندما طالب وزير خارجيتها برنار فاليرو رعايا بلاده بعدم السفر إلى الجزائر " الملتهبة" التي توجد ضمن الموقع البرتقالي غداة أحداث الشغب في 2011 على خلفية إرتفاع المستوى العام للأسعار[26]، حيث يرى جون كينيث جاليت أن الفقر سيكون المصدر الأول للفوضى العالمية، وأن المآسي البشرية سيكون مصدرها الحروب الداخلية وازدياد الفجوة بين الشمال والجنوب، كلها مبررات لبروز المقاربة الصراعية الصدامية بين ضفتي المتوسط، حيث يجب أن لا تخفى الرهانات الحقيقية التي تمثل الجانب الجيوسياسي والجيوأمني والسوسيو اقتصادي ومحاولة إحلال الاسلام محل الشيوعية كمتغيرات لاحلال الصراع والصدام بين الضفتين.

وتسعى الدول الغربية ومنها الأوروبية من خلال الترويج لمثل هذه العبارات الكاذبة والمخادعة: "الشراكة، المشاركة، العلاقات المتبادلة، ..."، واللعب على وتر "المساواة في السيادة" كما يرى كاراسيوف، إلى استخدام عملية التقسيم الدولي للعمل لاستغلال الشركاء الأضعف ونهب ثرواتهم، من خلال تخصص الدول المتخلفة في إنتاج

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

واستخراج المواد الأولية، وعلى رأسها المواد الطاقوية[27]، وذلك باستخدام قاعدة إذا كنت تحاول تدمير عدوك فإن من الأفضل أن تنوم يقظته بالتظاهر بالمودة تجاهه بدلا من أن تظهر غضبك، وذلك من خلال التمويه وذلك بتغطية السيطرة والاستعمار والتبعية بالشراكة؛ فقد تمخض عن التمركز العرقي الذي أنتج الحضارة الغربية منظومة قيم حملت على عاتقها مسؤولية تدمير الأنساق الثقافية لباقي الشعوب التي تشكل مجرد فعل غير تاريخي، الأمر الذي أدى إلى تصنيفات عرقية دونية يتربع الغربي على قمتها، مما يسمح للأخير المحتكر للتاريخ بالسعي إلى فرض وصايته على الآخرين الذين ما زالوا يبحثون عن مكان لهم في التاريخ[28].

تعمل الدول الغربية دائما على دعم المعاهد والروابط والمحاضرات والمؤتمرات الدائمة، التي تناقش قضية "الشراكة" أو "المشاركة" في شتى الميادين وبالأخص الاقتصادية منها، وتعمل كل الهيئات على تحضير وغرس الأفكار المناسبة لأهدافها في الوعي السياسي لشعوب الدول المتخلفة، وهي تستند في أساسها إلى مبادئ الخداع والنفاق الاستعماري الجديد[29]؛ وهذا ما يؤكده "علي الكنز" في دراسته لمشروع "الشراكة الأورو ـ متوسطية" حيث يقول: "إنه لا مجال للحجج المعارضة، فالخطاب العلمي المنقول من الطنطنة الدبلوماسية، يحاول منح الشراكة مشروعية علمية يجعلها مقبولة لدى المستوى الثاني من الفاعلين التكنوقراط الذين يقومون بدورهم باستخدامها في التطبيق العملي، وتتوافر الحلقات الدراسية وغيرها من الروابط بين التكنوقراط على الضفتين لنقل هذه الرسائل المزعوم؛ وتقوم هيئات التحرير في المؤسسات الأورو ـ متوسطية بدور فاعل لتحقيق هذا الهدف، ألا وهو نشر "أفكار جاهزة" في الأوساط المختصة يمكن استخدامها بسهولة"[30]، وهكذا فقد نجح الخطاب المتمسح بالعلم في اجتذاب الهياكل التكنوقراطية التي كانت تميل أصلا للمنطق النيوليبرالي مع بعض الاعتراضات والمجادلات على مستوى الخبراء[31]، ومنه محاولة السيطرة على مجريات أمور وقضايا مشروع الشراكة.

وتتضح هذه السيطرة من خلال ملاحظة أن هيكل عملية برشلونة في مجموعه هو صناعة أوروبية وكذلك النصوص التشريعية والتنظيمية، في حين اقتصر دور بلدان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

جنوب المتوسط على التصديق عليها، وتعقد اجتماعات العمل وكذلك المؤتمرات الكبرى والمنتديات في أغلبيتها العظمى في المدن الأوروبية، في حين تقوم "بروكسل" بدور العاصمة الاقتصادية والمركز العصبي الحقيقي للعملية، وتقوم "برشلونة" بدور العاصمة "الرمزية" والإتحاد الأوروبي هو الذي يقرر بواسطة كبار موظفيه وخبرائه أولويات النشاط وطرائق التمويل، في حين تقوم بلدان جنوب المتوسط - بعد ذلك - بالتنفيذ في الموقع[32].

فالمفوضية الأوروبية هي التي تحدد الأهداف في شكل توجيهات وواجبات على شركاء الجنوب اتباعها، فترى المفوضية مثلا أنه: "يجب تحويل الاجتماعات المحددة التخصصات لكبار الموظفين التي تجري حاليا، إلى منتدى مؤسسي للحوار بشأن مشاكل السياسة والأمن، كما يجب أن تُنشأ آليات لتعزيز التحرك المشترك الفاعل في مجالات الإرهاب، ومنع الصراعات وإدارة الأزمات"[33].

إذن فالمفوضية هي التي تتخذ كل القرارات (اختيار البرامج، المضمون، التنفيذ)، ومنه لا يعود هنالك الكثير مما يقوله الشركاء الجنوبيون بعد التوقيع على اتفاق الشراكة.

خاتمة:

تعتبر منطقة المتوسط نقطة إلتقاء لمعادلتين هما ثنائية شمال- جنوب التي تتجلى فيها الهوة الاقتصادية، وثنائية شرق – غرب التي تتجلى فيها الخلافات الحضارية، فجنوب المتوسط الذي يسود فيه الانفجار الديمغرافي والتخلف والفقر والاستبداد السياسي أدى إلى إنسداد في الأفق حيث ظهر التطرف والإرهاب والهجرة وغيرها من التهديدات الأمنية في منطقة المتوسط، حيث يمكن تصنيف الشراكة الأورو متوسطية ضمن مسار تشكيل التكتلات الإقليمية البطيئة وتشتغل حول البحر وتحت ضغوط تقترن بالطرد والجذب معا وبالتعاون والتنافس والصراع في آن واحد، فلا يمكن الجزم بسيرها نحو النجاح إذ أن المؤشرات عن ذلك غير واضحة رغم العمل المتطلع لإقامتها، ومن ثم يصعب الحديث عن وجود إرادة سياسية وجماعات مصالح تنجذبان معا نحو هذا المشروع، وإن كانت وفرة الاتصالات والمبادلات في تزايد متواصل.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فمفهوم الشراكة الأورومتوسطية يبقى مفهوم أوروبي يعكس مركزية المقاربة الاقتصادية (ليبرالية) والسياسية (ديمقراطية) التي تحتاج توفير شروط حيث لا تكون إنتقائية في التعامل كالحفاظ على الاستقرار مثلا بدل دعم الديمقراطية وتحقيق التنمية؛ فالمقاربة الأمنية الناجعة لتحقيق الأمن والاستقرار في منطقة المتوسط هي مقاربة تحقيق التنمية الاقتصادية بإعتبارها خير وسيلة لإحلال الأمن، وإجراءات الثقة في سبيل تقويم السلام يجب أن يستند إلى حلول عادلة ودائمة لكل الصراعات، مع عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول واحترام سيادتها.

فتحقيق الأمن الاقليمي يكون عبر إحياء استراتيجية رابح رابح التي تحقق المصالح المشتركة في المنطقة، وإن قدرة الترتيبات الدفاعية في منطقة المتوسط على الاستمرار سوف تعتمد في نهاية الأمر على عاملين الأول هو درجة التهديد القائم، والثاني هو درجة تقبل الآخر والتعاون معه، فتقبل بلدان المتوسط ميثاق الشراكة في بعده الأمني يعتمد على حجم الشعور بوجود تهديد مشترك متنام يحتاج إلى التعاون لدرئه، خاصة في ظل تعفن المنطقة المتوسطية بعد التحولات السياسية التي شهدتها منطقة جنوب المتوسط حيث تزايدت التهديدات في فترة وجيزة مثل الهجرة وتوسع العمليات الجهادية وتصاعد الحركات المسلحة، ما يفرض على الأوروبيين في التفكير من جديد في تطوير مقاربتهم الأمنية أو إقتراح أساليب جدية للتنسيق الأمني بالتركيز على عناصر الأمن الناعم، ويتطلب هذا المنهج الإستجابة للتحديات الأمنية الشاملة في المنطقة التي تستوجب تنويعا في السياسات الإجتماعية والاقتصادية والبشرية.

الهوامش:

(1)- جون كريستوف روفين، أوهام الامبراطورية وعظمة البرابرة، تر: أمل أبي راشد، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بيروت، ص 26.

(2)- ـ محمد سعدي، مستقبل العلاقات الدولية من صراع الحضارات إلى أنسنة الحضارة وثقافة السلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص47.

(3)- Daniel j Grange, La méditéranée berceau ou frantière, relations internationals, n°87, automme,1996.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(4)- ميلاد مفتاح الحراثي، تحديات الأمن القومي في غرب المتوسط، دراسة نقدية للأمننة وتحديات البيئة الأمنية وديناميكياتها في إقليم غرب المتوسط، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، 2013، ص100.

(5)- زكي ميلاد، تري علي الربيعو، الاسلام والغرب الحاضر والمستقبل، دار الفكر، دمشق، ط2، 2001، ص 21.

(6)- المرجع نفسه، ص ص 31.33.

(7)- عبد النور بن عنتر، أوروبا وصعود الإسلاميين إلى الحكم في الجوار العربي المتوسطي، مركز الجزيرة للدراسات، 2012، ص05: .www.aljazeera.net/studies

(8)- كريم مصلوح، التعاون والتنافس في المتوسط، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2013، ص ص 46.47.

(9)- المرجع نفسه، ص 99.

(10)- المرجع نفسه، ص101.

(11)- المرجع نفسه، ص103.

(12)- علي الكنز "المشروع الأورو ـ متوسطي بين الواقع والخيال"، في: سمير أمين، وآخرون، العلاقات العربية الأوروبية: رؤية عربية نقدية، مركز البحوث العربية بالتعاون مع دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص 101، 102.

(13)- ـ هارت ليدل، الاستراتيجية وتاريخها في العالم، تر: هيثم الأيوبي، دار الطليعة، بيروت، 1978، ص195.

(14)- ـ كلود يونان، طرق التضليل السياسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ص16.

(15)- ـ المرجع نفسه، ص20.

(16)- Jean Robert Henry, " La Méditerranée occidentale en quête d'un destin commun", L'Année du Maghreb, n°1, 2004, p15.

(17)- حسن المصدق: "لغز فرنسي: مشروع الاتحاد المتوسطي يبيعنا خرزا ليأخذ ذهبا"، العرب الأسبوعي، 2008/04/12،
http://www.alarab.co.uk/Previouspages/Alarab%20Weekly/2008/04/12-04/w15.pdf

(18)- إسماعيل معراف، الوضع الإقليمي العربي في ظل المتغيرات الدولية مع التركيز على قضايا الإصلاح والتحول الديمقراطي، المؤسسة الوطنية للإتصال النشر والإشهار، الجزائر، 2009، ص ص405. 406.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[19]- Suntzu, L'art de la guere, traduit de l'anglais par Franas wang.

[20]- كلود يونان، مرجع سابق، ص123.

[21]- علي الكنز، مرجع سابق، ص 22.

[22]- إسماعيل معراف، الوضع الإقليمي العربي في ظل المتغيرات الدولية مع التركيز على قضايا الإصلاح والتحول الديمقراطي، المؤسسة الوطنية للإتصال والإشهار، الجزائر، 2009، ص400.

[23]- محمد سعدي، مرجع سابق، ص71.

[24]- عبد الفتاح الرشدان، "العرب والجماعة الأروبية في عالم متغير"، مجلة دراسات استراتيجية، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد12، 1998، ص74.

[25]- محمد سعدي، مرجع سابق، ص71.

[26]- محمد بلخيرة، "برديغمات العلاقات الدولية المعاصرة: المركزية الغربية نموذجا"، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، العدد العاشر، جوان 2013، ص82.

[27]- أنظر: ن. ف. كاراسيوف، النهب تحت قناع الشراكة، تر: هاشم بطح، دار دمشق للطباعة والصحافة والنشر، دمشق، 1988، ص 46.

[28]- ناظم عبد الواحد جاسور، المرجعية الفكرية للخطاب السياسي الاستراتيجي الأمريكي ما بعد الحادي عشر من أيلول، دار النهضة العربية، بيروت، 2006، ص22.21.

[29]- المرجع نفسه، ص 45.

[30]- علي الكنز، مرجع سابق، ص 22.

[31]- المرجع نفسه، ص 22.

[32]- المرجع نفسه، ص 34.

[33]- المرجع نفسه، ص 37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com